رحلة

قررت، اليوم، أن نذهب إلى "الفيلاج" على متن دراجتينا الهوائيتين لنستنشق بعض الهواء هناك. كان أول شيء فكرنا فيه وفي الاستمتاع به هو الحديقة. بعد أن تناولنا إفطارنا، صلينا صلاة المغرب، جددنا وضوءنا ور اقبنا حالة الدراجتين وخرجنا.

كانت الطريق بين الدوار و"الفيلاج" مظلمة، وكنت أسمع عجلتي دراجة فاطمة حين ترتطم بالحجارة أو تسقط في حفرة من الحفر، فألعن المسؤولين ورئيس الجماعة الذي وعدنا كم مرة ليعبد الطريق فأخلف. ألعن حتى رؤساء الحكومة واحدا تلو الآخر. فقد كان كل واحد منهم يعدنا بالإصلاح، وحالما تتحسن أوضاعه هو بعد النجاح يثقل كواهلنا بالزيادات والضرائب وغلاء الأسعار والمعيشة. تذكرت قول أسي عبد الله البناء: "هز الكلب حط الكلب حتى لقاع الشواري"، فقد قال لي: "إنه كان ثمة رجل يبيع الكلاب، وملأ "الشواري" فوق الحمار، وكانوا جِراء، وكانت النساء من زبائنه. وحدث أن جاءته إحداهن ذات مرة، فاستوقفته لشراء جرو. وكانت المرأة ذات ذوق وتفنن في اختيار كل شيء. فلما رأت الجرو الأول أعجبها، فأخرجته، ولما رأت الثاني أعجبها وأخرجته، ووضعت الأول على الأرض.. وهكذا إلى أن أخرجت كل الكلاب. فلما انتهت، قال لها الرجل: "إنها كلاب كلها يا سيدتي.

فهل تطمعين أن تتحول إلى أسود؟"، ثم أردف قائلا: "هز الكلب حط الكلب حتى لقاع للشواري".

لعنت المسؤولين في صمتي، ولم أسمح لهم؛ لأن جسد فاطمة صار معطوبا جراء وقوع عجلتي الدراجة في الحفر. وخجلت كثيرا، لأنها تتحمل كل هذا من أجلي. و أنا لا أبذل أي مجهود لتحسين وضعية الدوار لترتاح. كل همي أن أسعدها في الليل وفي الصباح وفي أي وقت ومكان بتلبية غرائزها.

أعلم أنها ما كانت لتأتي للدوار وتقبل العيش وسط الأوحال، والأزبال، الذباب، والغبار، والسباب، والحفر.. لولا الحب. وكما يقال: "لمرا ماشي الخبز ألي خاصها فدار أبّاها"!. ينقصها الحب.

وصلنا إلى "الفيلاج". كان كل شيء مختلفا؛ الإنارة ساطعة، ومتنوعة الألوان: الأزرق، والأصفر، والأبيض، والأحمر، والأخضر...في حين أن إنارة المصابيح في الأعمدة إن وجدت كلها بالأصفر وضعيفة للغاية. نظرت إلى فاطمة، فإذا بي أرى وجهها منيرا كالقمر. كانت جميلة جدا بفعل الأضواء. هل يعقل أن أناس الدوار جميلون أيضا؟ وأن الإنارة الضعيفة حجبت عنهم الجمال؟هل يعقل أن يكره المسؤولون الدوار لدرجة منع الجمال عن أناسه بتقليل الإنارة؟

على ما يبدو أن المسؤولين لا يريدون من أهل الدوار أن ينشغلوا بجمالهم وأجسادهم مثل اهتمام أهل المدن و"الفيلاج" بالجسد. يريدونهم قابعين في العتمة، وفي أعمال الفلاحة، والحَفْر في حقول صغيرة تشبه القبور في ضيقها أو رقع شطرنج تزداد ضيقا في كل انقسام أسري أو عائلي كما

تنقسم خلايا الجسم؛ حيث تقسم الحفر بتقسيم التركة. يا لها من حياة مبدؤها التقسيم والتجزيء والمحاسبة.

مررنا قرب المحطة وبقيت فاطمة تنظر إلى حافلة ذكرتها بتلك التي جاءت بها أول مرة للدوار عروسا. ربما هي الآن تلعنها في صمتها أن جاءت بها إلى هذا المكان القذر المعتم. وربما تشكرها، في صمتها، أنْ لاقتها بي وبالعتمة.